هذا الكلام ترديد لكلام « درمنغام »، فضلاً عن أفكار « أرنست رينان » في الموسوعة البريطانية، حيث صور المجتمع العربي في مكة بأنه كان مجتمعاً موحداً يعبد الله الواحد، وكان يصدر عن عقيدة التوحيد .

ثم إن « واط » كشف عن حقيقة منهجه في تناوله للإسلام، حين قال : « ... ذكر الحوادث التاريخية ليس بعيداً عن الاهتمام العقدي ، فإن مؤيدي علم الاجتماع المعرفي يرون أن الأفكار العقدية والفلسفية ذات مرجع سياسي أو اجتماعي »[١] .

هكذا (!) الأفكار العقدية مصدرها ـ أحداث سياسية أو اجتماعية ، على كل حال « واط » يزيد موقفه وضوحاً وتحديداً ، فيذكر أن عالم الاجتماع العلماني يقبل آراء المتدينين كحقائق اجتماعية ، وليس كحقائق إيمانية غيبية .

أما كونها حقيقة (خاصة ما يثبت عن طريق الوحي الإلهي) أوغير حقيقية، فهذا لا يدخل في دائرة اهتمام العالم الاجتماعي. وإنما يهتم بذلك الرجل المتدين ... والأول يتعامل مع هذه العقائد من خلال الواقع المشاهد.

و«واط» يفضل منهج عالم الاجتماع على نظرات المتدين ، باعتبار أن العالم الاجتماعي يعتمد على النظرة الموضوعية ـ حسب زعمه ـ الخالية من ذاتية المتدين لذلك نجده يصور لنا محمداً مصلحاً اجتماعياً اشتراكياً أهمه مشاكل قومه الاجتماعية والسياسية والدينية، ومحمد كاشتراكي أخذ يفكر في طريقة للإصلاح، فكانت العزلة في غار حراء، بعيداً عن ضجيج مكة، وحتى تأتي أيديولوجية محمد متوافقة مع حالة المجتمع .

دوافع العزلة كما تصورها هذا المستشرق أمران :

الأول : الإصلاح الاجتماعي الذي وجده محمد فرصة لتحقيق ما كان يتطلع إليه وانطوت عليه نفسه طويلاً وهو رغبته في النبوة (!) .

الثاني : ليكفر عن خطاياه، وهذا يفترض أن محمداً كان ـ وحاشاه ـ فحاشاً، لعاناً ، طعاناً ، فأراد العزلة لذلك (!) .

هل هذه استنتاجات علمية؟ وهل هذه تقنع حتى العقل الأوربي ؟ أما العقل المسلم فإنه موقن، مصدق بما قاله ربنا جل وعلا في شأنه « ﷻ » : ﴿ وما كُنت ترْجو أن يُلْقىٰ إليْكَ الْكتابُ إلاّ رحْمةً مّن رّبّك فلا تكُونن ظهيـــــــــرًا لّلْكافريـن (٨٦) ﴾ [القصص: ٨٦] أي لم يكن يرجو أن يكون نبياً أو يتلو قرآناً، ولا يعرف ذلك .

١ ـ W . M . Watt , Islamic Philo Small and Theology , Britian: